الصورة في شعر بشار بن برد (91هـ / 168هـ)

(ثنائيات غير متجانسة (1-3)

برهان أحمد إبراهيم

تمهيد

يعد (بشار) مرحلة من مراحل التطور الطبيعي للقصيدة القديمة، إذ على يده شهدت الصورة الشعرية، تحولاً نوعياً سواء في مفهومها، أو في مثيرها، ولم تعد عملية نقل لمحسوس يشاغب النظر، دون أن يتصل بالقيمة النفسية للأشياء، بل أصبحت – الصورة – أداة الخيال الفاعلة ومضماره الرحب، الذي يمارس فيه نشاطه، وبه يختبر قدراته، وذلك حينما شغل به (بشار) عوضاً عن النظر، ليزداد خياله توهجاً، فكان ان تحررت الصورة من قبضة المحاكاة، وسطوة المثال، لتجوب عوالم الخيال...

قالوا العمى منظر قبيح — تالله ما في البلاد شي
قلنا بفقدي لكم يهون — تأسى على فقده العيون(1)

لم يتعرض شاعر لموجات الاذى المتتابعة، ولحملات التشهير المتلاحقة، مثلما تعرض بشار (بن برد)، بل لم يكن ذلك اخر امره، وإنما كان القتل بأمر الخليفة (المهدي) هو نهاية مطافه، إذ ضُرب "... سبعين سوطاً، وقيل: ضرب عنقه وكانت وفاته سنة سبع، وقيل ثمان وستين ومائة في ايام المهدي ..."(2) ليدفن دون ان يمشي بجنازته احد، إلا عبدة من السند.

أثار حفيظة المجتمع، لتجاسره على كل شيء، فانتهى الى لاشيء.. تحالف الكل ضده، وكأنما المجتمع برمته اعتزم تحطيمه، واغراقه في سيل عرم من الدسائس والاتهامات .. تيارات شتى، وطبقات مختلفة، وشرائح متنوعة ربما تباينت فيما بينها واختلفت في كل شيء إلاّ أنها في شيء واحد اتفقت واتحدت هو القضاء عليه ..فقهاء على اختلاف مذاهبهم شعراء ورواة شعر وعلماء لغة على تنوع مشاربهم ..أمراء ورجال دولة على تنوع مراتبهم بل وحتى العامة جميعهم تلاقوا وتقاطعوا في نقطة النيل من هذا الشاعر المتعجرف الزنديق الفاحش فكان لهم ما أرادوا وقد اسهم (بشار) في ذلك وساعدهم عليه بغروره المتطرف وتوهمه أنه فوق المجتمع:

ونبئت قوماً بهم جنة — يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهداً — ليعرفني أنا أنف الكرم

كل ما فيه مثار احتقار ومدعاة سخرية أكان من حيث نسبه فهو من أعجمي، ابن رقيق كان يضرب الطوب ليعيره بذلك (حماد عجرد):

ولريح الخنزير أهون من ريـ — ـح يا ابن الطيان ذي التبان

أو لتجاسره على الاعراض ودعوته الى الفسق:

لا يؤسينك في مخبأة — قول تغلظه وإن قبحا
عسر النساء الى مياسرة — والصعب يمكن بعدما جمحا

إن تلك الامور مجتمعه ولدت فيه كماً من العقد النفسية لعل أبرزها شعوره المتضخم بالاضطهاد ودون شك أن الإعاقة الجسدية والاجتماعية كان لها أثر فاعل في تكوين شخصيته المركبة المتصفة بحدة الطبع وتلون الموقف وتقلب المزاج وتطرفه فإذا به ذو طبيعة قلقة ..متوجسة ..عدائية لا تعرف معنى السكون أو الاستقرار.

وهذا ما يفسر لنا مظاهر تقلبه وتلونه وعدم ثباته في أمر صدر عنه وكأنه تكوين من ثنائيات غير متجانسة فلايكاد يستقر على شيء حتى ينقلب بتطرف الى نقيضه لذلك ضل طريقه فابتلعته أمواج الشك ليجد نفسه في قعر التمرد والإلحاد:

في اللاذقية ضجة — مابين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق — وذا بمئذنة يصيح

ياليت شعري ما الصحيح؟

إن في تطرفه بين الشيء وضده وتشبع شخصيته بالمفارقات علامة دالة على تأصل حيرته وتوجسه وفقدان توازنه النفسي والاجتماعي ولعل تلون موقفه من العرب يؤكد ما تقدم فتارة نراه يفتخر بهم مادحاً خصالهم:

أمنت مضرة الفحشاء أني — أرى قيساً تضر ولا تضار
لقد علم القبائل غير فخر — على أحد وإن كان افتخار
بأنا العاصمون إذا شجرنا — وإنا الحازمون إذا استشاروا

وأخرى يتطرف في هجائهم:

إذا انقلب الزمان علا بعبد — وسفل بالبطاريق الكبار
ملكنا كم فغطينا عليكم — ولم ننصبكم غرضاً لزار

وكذلك هو في جانب القيم والاخلاق يعيش حالة من التناقض العجيب بين اشارة بالسلوك الحميد وجمال الاتصاف بالحياء:

فلا وأبيك ما في العيش خير — ولا في الدنيا إذا ذهب الحياء

وبين مجاهرة بالمجون وتحريض على التهتك:

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم — ما في التلاقي ولا في قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته — وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

إن بشار أعلم بحقيقة طبيعته المتمردة المتجاسرة على كل شيء والقلقة من كل شيء:

طبعت على ما في غير مخير — هواي ولو خيرت كنت المهذبا

فهكذا كان يدنه أن يتلون ويتناقض في مفارقات عجيبة وكأننا أمام شخصيتين تختلفان أيما اختلاف: فكراً .. وعقيدة .. وعاطفة ..

فطبيعة تكوينه هي من "... دفعت به دفعاً الى التطرف وحدة المزاج والجمع بين المتباعدين والخلط بين النقيضين .." (3) وهذه الطبيعة كانت من التأصل ومن القوة بحيث ظهر أثرها أيضاً في فنه إذ جمع شعره بين المحافظة والنزوع الى التجديد وبين القوة والعلو وبين الوهن والسقوط .. وكأن (بشار) قد أراد بتلك الطبيعة المتناقضة الزاخرة بالثنائيات غير المتجانسة إثبات تميزه تمثلاً بالقول المأثور: (بضدها تتميز الاشياء)..

بإصرار وتطرف تضاغنا الطرفان وأسرفا في العداء أكان المجتمع الذي أمعن في التشهير ببشار واقتناص فرص الاجهاز عليه بتأليب العامة والخاصة كقول (واصل بن عطاء) محرضاً:

"...إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد ..." أو من جانب (بشار) الذي أغول في نزقه وتطرف في تحديه المجتمع وبالغ في الاعتزاز بذاته وتحقير الآخرين:

ودعاني معشر كلهم — حمق دام لهم ذلك الحمق
ليس من جرم ولكن غاظهم — شرفي العارض قد سد الأفق

لم يجد بشار إزاء ما تعرض له من تشويه وتجريح إلاّ الدفاع عن نفسه ليتحول الى مهاجم شرس فاحش الفعل بذيء القول لا يراعي حرمة شيء فكان الشعر سلاحه المرعب الذي ترتعد له فرائص المجتمع:

تزل القوافي عن لساني كأنها — حمات الأفاعي ريقهن قضاء

بلغت القطيعة ذروتها لا بين بشار والمجتمع فقط بل وبين نفسه أيضاً ليصل الى أعلى مشاعر الغربة والانفصال في قوله:

«اللهم إني قد تبرمت بنفسي وبالناس جميعاً»..

شعوره المتأصل بهامشية وجوده وتعدد مستويات النقص فيه وبخاصة آفة العمى دفعاه بقوة الى التحدي والتعويض فإذا بالنقص تفوقاً وإذا بالحرمان إبداعاً فشهد بذلك المجتمع ليقول له (الاصمعي): "مارأيت أذكى منك قط.. «فيجيبه بشار:» هذا لأني ولدت ضريراً واشتغلت عن الخواطر للنظر.." ثم أنشد:

إذا ولد المولود أعمى وجدته — وجدك أهدى من بصير وأجولا
عميت جنيناً والذكاء من العمى — فجئت عجيب الظن للعلم معقلا

إذاً سر ذكاء بشار يكمن في ظلام عينيه الذي زاد خياله توهجاً وجعله أشد حرصاً على اثبات وجوده وتأكيد ذاته المتميزة لا سيما في عصر شديد الإيمان بالتمايز:

وعيرني الاعداء والعيب فيهم — وليس بعار أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والتقى — فإن عمى العينين ليس يضير

آفة العمى بكل أثارها السلبية من آلام نفسية وتداعيات اجتماعية كانت هي ايضاً قوة محفزة تشده دوماً الى التعويض وتدفع به نحو التميز الفني الذي وضعه على رأس مدرسة التجديد فحرمانه نعمة البصر دعاه الى تقليب تربة خياله وتجديدها لتثمر ودون مؤثر النظر – جمال المجهول غير المرئي وقد سئل عن ذلك فأجاب قائلاً: «إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الاشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته» إذاً من فاعلية التوهم والتصور صاغ بشار روعة الإلتقاء بين مالم يبصره قط وبين ما صوره وتخيله:

فإني كلما اشتقت — إلى وجهك صورته
أناجي شبهاً منك — على الترب إذا اشتقته

كثيرة هي الابيات التي حاول بها (بشار) خداعنا وإيهامنا أنه كامل الحواس وصحيحها وأنه لا يشكو عيباً أو حرمان بصر غير أن البيتين السابقين يكشفان حقيقته كشاعر خيالاته تتفجر لكونه أعمى ويمكن رصد الاشارات الدالة على ذلك من عجز البيت الأول في كلمة (صورته) الدالة على عملية تأليف الشاعر صورة ذهنية لوجه الحبيب الذي لم يره أصلاً لعله عماه ...و (التصور) هنا بمعنى (التخيل) الذي يرادف لغوياً (التوهم) كأن نقول: تخيلته فتخيل لي ... أو نقول: تصورته فتصور لي أكان الشيء موجوداً أو لم يكن ...وبذلك فعملية (التصور) لا تعني نقل صورة من العالم الخارجي ونسخها بناءً على رؤية البصر بل هي عملية ذهنية بحتة تقوم على تأليف تخيلي بغية تحقيق قدر معين من (المتصور) كما تخيله أو (تصوره) الشاعر وبالتالي فإن تلك العملية لا تسعى بصورتها المتكونة أن تقوم مقام (المتصور) بحيث تأخذ مكانه.. أما الاشارة الاخرى فموقعها صدر البيت الثاني في كلمة (شبهاً) التي تعني (المثل) فالتشبيه يعني (التمثيل) وهو عند البيانيين "إلحاق أمر بأمر لصفة مشتركة بينهما" ونفهم من ذلك أن (التشبيه) هو مقارنة نسبية بين طرفين متمايزين يشتركان في صفة أو أكثر مما يعني انتفاء التوحد وتأكيد التعدد..وصورة بشار المتخيلة لوجه حبيبته لا يختزنها في مستودع ذاكرته بحيث يمكنه استرجاعها متى أراد وإنما هي وليدة عملية (التصور) و (التخيل) لذا فهي بنت خياله ولا تمثل حقيقة ملامح ذلك الوجه وإنما حاول الشاعر خلق نوع من التقارب النسبي المنبعث من إحساسه الداخلي بين ما (صوره) وبين ما لم يره على الواقع المحسوس أصلاً..

في ظلام عينيه ازداد خياله توهجاً فأبدع صوراً شعرية أدهشت من حوله فحقق تميزه من خلال تفعيل وشحذ خياله في تخيل المنظور وتشخيصه لبناء علاقة تفاعلية تجسد القيمة النفسية للأشياء وبهذا نسج بشار صورة فنية جديدة متحررة من سيطرة التقليد ومن سطوة مفهوم المحاكاة ليؤكد بذلك أن الصورة إنما هي "...أداة الخيال ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه .." (4) فالتخيل بديلاً عن النظر والمشاهدة، فالشعر ليس نقلاً لجزئيات العالم وإنما هو خلق وابتكار ومحاولة لإعادة صياغة المنظور وهو ايضاً تشكيل متجدد يتولد من خيالات الشاعر وتداعياته النفسية والفكرية..

المصادر والمرجع:

– 1ديوان بشار بن برد: شرح: حسين حموي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الاولى 1996م المجلد (2) ص 539.
2 – عبدالله بن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة (4) 1981م ص 99.
–3مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة (3) 1979م ص 21.
4–جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير، بيروت، الطبعة (2) 1983م ص14.

حكاية مذكرات قلب

دخلت سعاد إلى غرفتها وأخذت تبحث عن خاتمها الفضي ذي الفص الأزرق كي تزين به أناملها في حفل زفاف ابنة خالتها وبحثت عنه كثيراً ولكنها لم تجده فقررت البحث عنه في دولاب ملابسها وخلال بحثها المستمر لفت انتباهها صندوق اسود كانت تحتفظ به في خزانة مساحيقها التجميلية ففتحت ذلك الصندوق ويداها ترتجفان وجدت شيئاً لم يكن تريد رؤيته إنه دفتر مذكراتها التي حاولت كثيراً تجنبه والابتعاد عنه حتى لاتتذكر مامضى من الوقائع الجميلة والأليمة في آن واحد حاولت جاهدة إعادة الدفتر إلى الصندوق لكنها فشلت في فعل ذلك وكأن شيئاً ما كان يدفعها الى فتح تلك المذكرة لترى مادونت على أولى صفحاتها من ذكريات فبمجرد قراءتها السطور الأولى حتى عادت بها مخيلتها إلى الوراء.

سعاد فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً كانت تعمل في إحدى القطاعات الحكومية ولم تكن تعلم بأنه سوف يأتي اليوم لها تسلك فيه هي الأخرى طريقاً رفض قلبها مراراً أن يسلكه فلقد أخذت على نفسها عهداً أن لاتحاول أو تفكر في خوض تلك التجربة التي حاولت أكثر من مرة عدم خوضها فلقد كانت تهزأ من صديقاتها عندما كن يروين لها مغامراتهن العاطفية ومدى تعلقهن بمن أحببن وبأنهن لايستطعن أن يعيشن دون ذلك الحب وراحت سعاد تهزأ بهن وتضحك على تلك المشاعر المجنونة ولم تعلم بأنه سوف يأتي يوم تصبح هي الأخرى مصابة بمس من الجنون حينها كانت الأقدار ترسم لها خيوط ذلك اللقاء الذي لم يكن من المتوقع حدوثه.

فعن طريق الصدفة فرضت عليها عملها الذهاب إلى إحدى الشركات لتعرف طبيعة عمل الشركة وهناك كان اللقاء غير المنتظر جلست بالقرب من مكتب الشخص القائم بأعمال هذه الشركة للتعرف على بعض الانجازات والخطط التي سوف تقدم على انجازها.

تعرفت سعاد الى هذا السيد عن كثب كان رجلاً بمعنى الرجولة وذكياً بمعنى الذكاء يمتلك شخصية قوية يصعب على أحد الإقتراب منها ولم يكن هذا السيد فارسها المنتظر الذي انتظرته طويلاً فلقد كان يكبرها كثيراً بالعمر ولم تكن مواصفاته هي المواصفات التي تمنتها تحدثت إليه ونظرت في عينيه فوجدت ان نظراته لم تكف عن مراقبتها ولم يكف عن التمعن في ملامح وجهها فأحست سعاد حينها بنوع من الخجل والاستحياء كل تلك النظرات جعلتها تشعر كما لو كانت مخلوقاً غريباً مختلف كل الاختلاف عن سائر البشر على الأرض.

ميسون عدنان الصادق

لماذا كلما ذهبت إلى مكان تشعر كمل لو كانت مخلوقاً غريباً مختلف كل الاختلاف عن البشر حتى في سفرها إلى الخارج ينظر إليها الناس نظرة مختلفة ويسمعونها كلمات الإعجاب.

فهي تعرف تماماً أنها جميلة الشكل حسنة المظهر وأنها تمتلك صوتاً كهديل الحمام ولكن جمالها لايختلف كثيراً عن جمال العديد من الفتيات فهناك من هن أجمل منها ولكنها كانت دائماً تتمنى أن تصحو في يوم من الأيام لتجد الناس ينظرون اليها كباقي الأشياء العادية التي اعتادوا النظر إليها كل يوم.

عادت الى المنزل ولم تكن تشعر بشيء تجاه ذلك الرجل ارتمت سعاد فوق سريرها لتغفوا قليلاً بعد يوم طويل من العناء والمليئ بالمشاق واستيقظت عند غروب الشمس ونست كل شيء عن ذلك السيد الذي قابلته ومر على لقائها به بضعة أيام وإذ بها ترى رقماً غريباً على هاتفها ففتحت مذكرة الهاتف لتتأكد من صاحب الرقم فإذا بها تجد أنه السيد صاحب الشخصية القوية من هنا بدأت رحلة سعاد ورحلة معاناتها مع ذلك السيد التي انخدعت به وندمت كثيراً على حبها له..

لم تكن تعرف بان ذلك الشخص يختبئ ورائه قناع مزيف من الطيبة والوفاء والإخلاص يخبئ لها كثير من المفاجآت فبعد لقائها الأول به كان من غير المتوقع ان تلتقي به مرة أخرى ولكن العكس صحيح التقت به للمرة الثانية (صدفة) وهذه المرة رأت في عينيه نظرات الغيرة التي كادت تقتله لم يكف عن ملاحقتها من زوة الى أخرى فاكتفت سعاد بتجاهله وعدم الاهتمام بوجوده كأنها لاتعرفه فانتظرت رحيله الذي فاجأها به سريعاً فبدأت بالبحث عنه في كل أرجاء المكان الذي خيم عليه الحزن وقتها دون أن تعلم لماذا فأخبرتها صديقتها المقربة التي كانت لاتفارقها كظلها بأن ماتشعر به سعاد تجاه ذلك السيد هو ماتشعر به الكثير من الفتيات لم تصدق حينها وأخبرتها بأنه مجرد إعجاب ليس أكثر لكنها أصرت على كلامها هذا فقررت سعاد

الاعتراف له بمشاعرها تجاهه فلم تكن تدري بأنه مجرد الاعتراف له بذلك بأنها سوف تفتح على نفسها جهنم بيدها لتلقي بنفسها على طريق التهلكة فذلك السيد بمجرد سماعه اعترافها بدأ يعاملها كأنها طفلة صغيرة مازالت في المهد وانقطعت رسائله عنها وبدأ يقسو عليها كثيراً وأصبح غيابه عنها طويلاً لم يعد الرجل الذي أحبته لقد تبدل حاله من الأحسن إلى الأسوأ...

ندمت سعاد كثيراً على تسرعها واندفاعها وتهورها لماذا لم تتأن قليلاً قبل أن تصرح له بحبها كانت دائماً تحاول أن تعالج الأشياء بمنظورها الخاص وكانت تحاول الإقتراب منه وحاولت مساعدته كثيراً ولكن للأسف اكتشفت بأنها أحبت رجلاً مريضاً لم يكن يحب سوى نفسه لقد سمعت عنه بأنه أناني لديه الكثير من الأقنعة ليرتديها وكل قناع لديه وقت وحين مناسب بل والأسوأ من هذا وذاك أخبرتها زميلة لها في العمل بأن ذلك السيد يحبها وأنها لاتفارقه أبداً حينها لم تصدق سعاد ماسمعت وحملت نفسها لتتأكد من صحة كلامها هذا وإذ بها تسمع نفس الحديث ممن يعملون معه وبأن تلك الفتاة لاتفارقه وبأنهما أصبحا لايفترقان أبدا فتعجب الكثير من الدموع التي كانت ترقرق في عينيها وهي تسمع هذا الحديث حينها تمنت أن تنشق الأرض لكي تبتلعها وكانت آلاف الأسئلة تدور في رأسها لماذا أفضل إمرأة غير جميلة وكبيرة في السن على فتاة جميلة وصغيرة في السن؟

حينها أجابت عن كل تلك التساؤلات فهو لم يكن يغار عليها بل كان يغار منها ومن نجاحها وتقدمها الدائم في عملها فهو لم يستطع النيل منها ولم يجدها مثل باقي النساء اللاتي عرفهن في حياته لم يجد سوى تلك المرأة التي كان لاينظر إليها سواه أما سعاد فقد كان يخاف من تواجده معها في مكان واحد خوفاً من أن ينظر إليها جميع الحاضرين فهي تقدمت منه الآن كيف تعيش لنفسها مثله تماماً فنظرت سعاد لتقرأ السطور التي ماقبل الأخيرة التي كتبت فيها قائلة:

عدت إلى المنزل لأرمي كل شيء وراء ظهري فهو لم يعد بالنسبة لي سوى ذكرى لقد تغير كل شيء لم يعد لحبه أي اثر في قلبي فهو الآن بالنسبة لي في عداد الموتى ولم يعد له أي وجود فهو الآن بالنسبة لي كأي رجل عادي لقد صحوت اخيراً قبل فوات الآوان لقد انتهت حكايتي مع ذلك السيد لأغلق آخر صفحة من صفحات قلبي الذي قد افتحه لرجل مناسب آخر في الوقت المناسب.

أغقلت سعاد الدفتر عند سماعها صوت أختها الذي أعادها من الماضي الأليم إلى الحاضر لتمسح بيدها دمعة كانت قد سقطت على خدها لتمسح بها كل تلك الذكريات الأليمة والمحزنة التي انتهت بالخداع والغش أعادت سعاد دفتر مذكراتها إلى الصندوق الأسود وعندما كانت تتأهب لقفل الصندوق رأت شيئاً يتلألأ داخل الصندوق لقد كان ذلك الشيء خاتمها الفضي ذي الفص الأزرق لبسته في أصبعها لترسم ابتسامة رقيقة على شفتيها وأمسكت بالمشط وأكملت تسريح شعرها الأسود الطويل الناعم وهي تلتفت إلى الأمام تاركة الماضي خلف ظهرها وتاركة معه الرجل الذي أحبته لمالكه الأصلي وهي تردد (الحمد لله لقد عدت سالمة).

حروب ضد الأمة بمسميات ناعمة

من (النسر النبيل) حتى (غيوم الخريف)

قراءة / شفامنصر

لم تعد آليات الحرب المفروضة على الأمة تعتمد على تبريرات مراوغة وذرائع واهية لإستخدام القوة المفرطة في الغزو العدواني على شعوبنا العربية – فليس هناك اعتبار أصلاً لمنطق الأخلاق في عرف أمريكا وإسرائيل بسبب غرور القوة والهيمنة– بل إن آليات الحرب الجديدة التي تعتمدها أمريكا قد نحت منحاً استشراسياً خطيراً وغدت حرباً (لغوية) مستندة الى استراتيجية عدوانية حددها (د.إدريس معقول) في دراسة له بعنوان: «آليات الحرب اللغوية على الأمة» على موقعها الألكتروني بثلاثة أساليب:

الأسلوب الأول: أسلوب (التزوير) من خلال عمليات (التهويد) التي تستهدف طمس التاريخ وآلية التزوير تلك إحدى أهم الوسائل الاحتيالية في حرب إسرائيل على الفلسطينيين نظراً لسلطة الإعلام التي نسجت الأكاذيب والأوهام ورسخت الأباطيل مثال على ذلك: التزوير الخبيث لأسماء الأماكن الفلسطينية في اتجاه تهويدها عبر تحريف اسمائها الحقيقية..

الأسلوب الثاني: من أساليب الاستراتيجية العدوانية لأمريكا وإسرائيل في الحرب اللغوية على الأمة هو ماسماه الكاتب (بالتبرير) المراوغ من خلال عملية المبادأة بالعدوان الذي يستهدف إدعاء الظلم والإلتفاف على مفهوم الحق وأصحابه في الوقت الذي تباشر فيه آلتها الاعلامية حملة موازية واستباقية للعدوان تعمل على تبرير وجه الظلم بأنه دفاع عن النفس !؟

والأسلوب الثالث: من أساليب تلك الاستراتيجية الماكرة في حربها اللغوية على الأمة هو عمليات (التمرير) من خلال بناء شعارات عدائية تستهدف النيل من الخصوم بطريقة تعمل فيها اللغة والصورة والسيناريو عملها النفسي في إحداث حالة من "الإحباط الردعي المزمن" حيث اللغة لم تعد وسيلة توصيل بريء للمعلومات بقصد الإفادة بل تحولت لتصبح وسيلة من وسائل الهجوم في الحرب النفسية.

فمن أجل (تبرير) الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية الفلسطينية عمدت الامبريالية والصهيونية العالمية الى توظيف السينما الامريكية ودعمها لإنتاج أفلام دعائية تصور اليهودي مغلوباً على أمره والفلسطيني إرهابياً ينشر الرعب والهلع ولم يقتصر استخدام اللغة بطريقة مخادعة مضمرة على الفنون والآداب الصهيونية كما يقول: د.إدريس مقبول .. بل هي صلب الخطاب الاستكباري الامريكي الاسرائيلي وللتمثيل على أن اللغة لا توجد من فراغ كما يقول كاتب آخر هو "المسيري" وإنما توجد داخل أطر إدراكية تجسد صوراً مجازية ونماذج معرفية" يورد لنا الكاتب عدداً من الامثلة:

المثال الأول: الحملة العسكرية الاسرائيلية المسماة (أمطار الصيف) التي جاءت رداً على العملية التي قام بها رجال المقاومة الفلسطينية والمسماة (الوهم المتبدد) التي حطمت اسطورة الجيش الذي لايقهر فزحف الجيش اللاسرائيلي في حرارة صيف (2006م) لينتقم من الشعب الفلسطيني محاولا إطلاق سراح الجندي الاسرائيلي "جلعادشاليت" فسمى تلك العملية الارهابية (بأمطار الصيف) والصورة الاستعارية في هذه التسمية هي صورة مقتبسة من البيئة والمقصود من تركيبها على ذلك النحو المتناقض يدل على أن هذه الأمطار (الحملة العدوانية) لا تكون إلا فجائية في غير أوانها والتي يحتمل ان تكون مهلكة لاتنزل برداً وسلاماً على أهلها.. وهذه الصورة الاستعارية كما يرى الكاتب هي صورة ترتبط عضوياً في السياق الكوني ببنية عقائدية اسطورية فوقية تتغذى بموروث (توراتي) يستهدف اثارة الانتباه الى ان الامطار عقاب الهي للعصاة خاصة إذا كانت في فصل غير فصلها.

والمثال الثاني: العملية المسماه (عناقيد الغضب) التي سنها العدو الاسرائيلي على لبنان الشقيق في الفترة الواقعة بين 26–11 أبر يل 1996م وكان الهدف منها نزع سلاح المقاومة وهذه التسميه هي في الاصل عنوان لرواية كتبها الروائي الامريكي (جون شتاينبك) ونال عليها جائزة نوبل سنة 1962م ومن يقرأ تلك الرواية سيجد أن مسارها انساني ولاترتبطها أي علاقة بالعملية الاسرائيلية الهمجية.

ففي التسمية (عناقيد الغضب) صورة استعارية مزجت بين عنصرين أحدهما (نباتي حلو) والثاني ينتمي الى مجال مختلف مجال النفس الانسانية (المر الساخن) في اشد حالاتها اضطراباً (الغضب).

وفي تلك الصورة الاستعارية تحديد لطبيعة العملية العدوانية التي تبتدء كما يبدأ عنقود العنب بحبة لتتوالى الحبات متراصة متكاثفة فتكون عناقيد (الغارات).

واذا كانت الجرائم العسكرية والحروب البربرية التي تشنها إسرائيل على امتنا العربية وشعوبنا الإسلامية تتخفى تحت مسميات ناعمة ومخادعة تستعيرها من دورة الحياة في الفصول الأربعة (أمطار الصيف) و (غيوم الخريف)..!؟

فالولايات المتحدة الأمريكية التي تشن حرباً كونية على كل معارض لسياستها الخارجية تستدعي تسميات (الكائنات الحيوانية) التي تحضر بكثافة في أفعال التسمية حين يكون موضوعها الحروب والعمليات العسكرية للإشادة بنزعة الإنسان العدوانية.

مثال على ذلك العملية العسكرية المسماه (النسر النبيل) التي أعلنتها الولايات المتحدة الأمريكية بعد تفجيرات سبتمبر للثأر مما حل بها في ذلكم التاريخ المشؤوم فأشهرت حربها على أفغانستان أولاً ثم على الإرهاب ثانياً حرباً وهبتها الاسم سالف الذكر (النسر النبيل) والنسر كما هو معروف من الجوارح ومن طبيعته الافتراس والانقضاض ولكن الاستعارة هنا تحوله إلى رمز للنبل !! رمز للدولة الاستكبارية المتعالية (إنها الأسطورة اليهودية الأمريكية في أنهم أكثر قرباً من الإنسانية والنيل من أي إنسان).

أخيراً لاشك في أن أسماء الجرائم العسكرية البربرية التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل على امتنا العربية وشعوبنا الإسلامية كثيرة لايتسع الحيز لاستعراضها وشرح تراكيبها الاستعارية واللغوية المخادعة التي تضمر لنا الحقد الدفين لكنها في مجملها تلخيص واختزال للخطاب العدواني المستكبر الذي يبين لنا كما يبين التاريخ أن أمريكا الأكثر استعداداً لإدعاء الانتساب إلى قضية سامية ونبيلة وهي غالباً المسؤولة عن اقتراف أكثر الجرائم بشاعة ومأساوية.

قصيدة مترجمة

أبو غريب

شعر: كرتس بنيت
ترجمة: شهاب غانم

كانت الصور واضحة بشكل مؤلم
باللون والتفاصيل الدقيقة
والبكسلات العديدة
من آخر الدنيا
من بلاد أخرى بعيدة
من مكان وزمن آخر
كانت لابد إنكارها أو التملص منها،
النظر إليها مؤلم وقبولها صعب

بعض الصور كانت لرجال عارين
على رؤوسهم أغطية سوداء
مرصوفين في أكوام على الأرضية،
بينما كانت هناك فتاة أمريكية تبتسم ابتسامة عريضة
وهي تشير إلى أعضائهم التناسلية
كأنما وجدت فيهم نقصاً
يحتضنون بعضهم بعضاً بأيد مقيدة
جلد عار على جلد عار
في مجموعات مخلوطة من الأجساد
ممددين معاً في أكوام متشاحنة مضطربة
ممددين عاجزين أمام الأمريكيين

إحدى الصور أظهرت سجيناً مثل عثة عملاقة
واقفاً فوق صناديق مع أقطاب كهربائية
موصولة بأصابعه
صورة أخرى أظهرت رجلاً مرعوباً آخر
يتراجع ويداه مقيدتان
وينكمش ذلاً إلى الجدار
في رعب رهيب من كلاب هائجة
كانت تشد طوقها وتنبح للوصول الى الفريسة

وأكثر الأمور إقلاقاً في ذلك السجن الرهيب
المعروف في العراق (بأبو غريب)
صورة مجندة أمريكية تبتسم
وهي تنظر إلى الأسفل نحو سجين
ممتد على الأرض مثل كلب
وقد أمسكت برسن معقود إلى رقبته
وقفت هناك بدون انفعال تتفرج
على جائزتها المقبوض عليها من الرجولة العراقية
تنكمش مرتعدة على الإسمنت البارد
مستضعفة وعاجزة عن المقاومة
غير قادرة على أن تفعل شيئاً أو حتى تتحرك
غير قادرة على التفكير أو الدفاع عن النفس
في أقصى درجات الإذلال و المهانة
تحت الرحمة الكاملة للحرب

هذه الصور هي استعارة
تمثل وجهة نظر أمريكية نحو العراق
وماتظنه في شعب العراق
وعن سيطرتنا وسطوتنا
عن قسوتنا ووحشيتنا
عن لا إنسانيتنا وصلفنا
واحتقارنا التام للشعوب الأخرى،
فقط نحن وأولوياتنا الأنانية
حيث يسيئ العسكر استخدام سلطتهم
ويستعبد القوي الضعيف
حيث الرؤساء خارج سطو القانون
خارج كل سلطة وملامة
وبالنسبة لسجناء الحروب البائسين
فيظهر أنهم يؤمنون
أنهم غير مسؤولين أمام أي كان

وتبرز استعارة موازية
عن حراس ومساجين
عن رسن وأغطية رأس
عن عدم اكتراث صلف
بالمعاملة الوحشية لسجناء الحروب
إنه "شيني" الذي يمسك برسن
كونجرس عقيم عار مغطى الرأس
والوزير "رامسفيلد" يجرسن
العسكر الذين يتعثرون خلفه عميانا

والرئيس «بوش» يقود الثلاثة
في هذا الطريق المنحدر من الأخير الأصفر
المعبد بالأكاذيب والتحريفات
بالخوف الكاذب، والرعب، والخداع
والأعداء الوهميين المتخيلين
ويسحب وراءه الجماهير الأمريكية المغطاة الرأس
العمياء العارية
في هذا الطريق المنحدر القاتل
من حرب ودمار
نحن جميعاً، المشاركين دون رغبة في هذه الحرب
نحن جميعاً.. في أمريكا
سجناء حرب!

كرتس بنيت عمل طياراً حربياً في حرب فيتنام